## وما أدراك ما الستينيات!

ذهبتْ الكاتبة سناء البيسي إلى الدكتور زكي نجيب محمود تبلغه بإعجاب سعاد حسني بإحدى مقالاته في جريدة «الأهرام»، فابتسم الفيلسوف، وبدت مظاهر الانتعاش والحُبور على وجهه ثم علّق قائلًا: «هيَّ سعاد بتقرالي؟!».

لم يُصدق المفكر الكبير الذي قضى عمره بين نظرياته الفلسفية، وأفكاره العميقة، وعباراته الرصينة أن فنانة الشعب واحدة من القراء الذين ينتظرون مقالاته، فرغم كثرة مريديه من صفوة الصفوة، ونخبة النخبة من الفلاسفة والمفكرين وكبار المثقفين فإنه لم يشعر بالسعادة إلا حين علم أن سُعاد تقرأ له!

وهكذا أي كاتب، مهما بدا أنه يكتب لنفسه وأنه غير مكترث وغير عابئ بما يجري حوله ومهما علا شأنه وكثرت جماهيريته وعلا صوت مريديه وتهافت على كتبه الجميع، إلا أنه حين يرى قارئا جديدا خارج الإطار الذي يتوقعه يشعر بفرحة طفل صغير حصل على قطعة شوكولاته على غير انتظار، فما بالك إن كان هذا القارئ هو سعاد حسني ذاتها!

سعاد ونجيب كلاهما بدأ نجمه يلمع في ستينيات القرن الماضي، ورغم التباين الشديد بينهما فإن كليهما كان يُقدِّر الآخر وينتظر إبداعه، وهكذا كان الجيل بأكمله سواء اتفقوا أم اختلفوا، فأحمد رجب كان يُقبِّل يد أستاذه جليل البنداري رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»، ورجاء النقاش أفردَ كاتبًا كاملا عن

الشاعر محمود درويش رغم كونه أصغر منه سنًّا، ومحمود السعدني كتب فصلا في أحد كتبه عن صديقه كامل الشناوي، والشناوي كتب عن مصطفى محمود، والأبنودي رثى صلاح جاهين، وجاهين كتب عن فؤاد حداد...

كل مبدع منهم كان يدرك حجم الآخر ومكانته، رغم أن بعضهم كان أصدقاء والبعض الآخر كان من ألدّ الأعداء، وبعضهم كان من رموز اليمين والبعض الآخر من أعمدة اليسار، وبعضهم بلغت شهرته الآفاق والبعض الآخر لم يحصل على عُشر ما يستحق، وبعضهم كان مترفًا والبعض الآخر كان يعيش بالكاد، وبعضهم كان ثوريًّا عنيفًا صادمًا والبعض ظل محافظًا رقيقًا هادئًا، وبعضهم كان متحدثًا بارعًا والبعض الآخر كان لا يتحدث مطلقًا، وبعضهم كان مفكرًا والبعض الآخر كان مفجرًا للثورات، وبعضهم دخل السجن أكثر من مرة وبعضهم لم يَزُر أحدًا في السجن مطلقًا، وبعضهم اقترب من السلطة وبعضهم شارك في تنظيمات سرية هدفها قلب نظام الحكم!

هؤلاء جميعًا بكل خلافاتهم واختلافاتهم «لحم دماغنا من خيرهم» فهم أعمامنا الذين نَدين لهم بالفضل والسبق، ونتعلم منهم ونتّبع خطاهم ونَحْذَر خطاياهم، وندرك حجم قاماتهم وقيمتهم، فكلهم أبدعَ وتفرَّدَ وتألَّقَ وثارَ وأثَّرَ وجدَّدَ وصنع مجدًا يصعب على غيره الوصول إليه.

لكن المدهش أن جميعهم عاش ولمع في ستينيات القرن الماضي، وما أدراك ما الستينيات حين التقى كل الجبابرة في عصر واحد وساعة واحدة!

وهي صدفة ولكن بألف ميعاد، كأن القدر أراد أن يلتقوا جميعًا في لحظة فارقة، ويسكنوا أرضًا واحدة، ويصير كل واحد

منهـم بمثابـة وليٍّ لا يمكـن تجـاوزه، ولا يجـوز أن لا نعرفـه، لكنهـم كانـوا أوليـاء بـلا أضرحـة ولا مقامـات، لأنهـم أوليـاء للعقـول ومُلهِمـون لمريديهـم سـواء كانـوا بضـع عـشرات أو عـشرات الملايـين، فالاحتفـاء بالرمـوز لا يكـون بكـثرة الأتبـاع، ولكـن بحجـم التأثـير، وعِظَـم الـدور، وقـدْر الصـدق، وعُمـق التجربـة، فالأشْـهَر ليـس بالـضرورة الأفضـل!

## أساطير في الظِّل

إذا كان علينـا أن ننظـر إلى الحـاضر بغضـب، فعلينـا أيضًـا أن ننظـر إلى نفـس الحـاضر بخجـل!

جميل عارف

# صباح الخير يا أستاذ بهاء!

«١»

أيها القارئ..

هل عرفت أحدث تعريف للإنسان؟

لقد قيل مرة: إنه حيوان ناطق، ثم تبين أن الببغاء ينطق.

وقيل: إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.

وقيل: إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل، وإن كان العقل درجات!

وحار العلماء طويلا: فالإنسان كائن حي، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات، ولكن المؤكد أن هناك شيئًا ما يميِّزه عن الحيوان، شيئًا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة.

وأخيرًا اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق: الإنسان حيوان ذو تاريخ!

ما معنى ذلك؟

معناه أن الميزة الأولى التي تميِّز الإنسان عن غيره من المخلوقات أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها، فالإنسان الواعي يرى قطعة الجبنة ويرى المصيدة!

هكذا كان يفكر أحمد بهاء الدين، الذي كان مفكرًا قبل أن يكون كاتبًا، وإنسانًا نبيلا قبل أن يكون صحفيًّا كبيرًا وراقيًا،

ورقيقًا قبل أن يكون محللا وخبيرًا وقانونيًّا؛ فقد تخرج في كلية الحقوق -التي زامله فيها الأديبان فتحي غانم وعبد الرحمن الشرقاوي- وعمل في بداياته مفتشًا للتحقيقات وذهب مع رئيسه المستشار مصطفى درويش للتحقيق في قضية في أحد بلاد الوجه البحري، ونظرا إلى دقة جسمه فقد جاءت شكوى إلى الوزير بأن مصطفى درويش اصطحب معه ابنه الصغير على حساب الحكومة!

بهاء حقوقيٌّ من طراز خاص تعلَّم من القانون ما جعل في صدره ميزانًا دائمًا قائمًا يزن به كل شيء، وإذا كان لم يجلس على منصة الأحكام للنظر في قضايا الناس فإنه اختار -بعدما استقال للتفرغ للكتابة في الصحافة- أن ينظرها في عموم الشوارع لا في ساحات المحاكم.

«٢»

كان يدرك أن من اقترب من السلطة احترق! فحافَظ دائمًا على أن تكون هناك مساحة واضحة بينه وبينها، فعلى قدر حرص السلطة على سماع رأيه ورؤيته فإنه لم يكن كاتبها ولا صوتها ولا أحد أبواقها، فقد اختار منذ البداية أن يكون كاتبًا للشعب، فلم يسعَ يومًا لكسب مريدين، ولم يطمع في كسب ود صاحب سلطة أو مال أو نفوذ، فهو يقول ما يعتقد أنه الحق دون حسابات أو مواءمات.

هو من قلائل لم تغيِّرهم تقلبات الأحوال، فلم يتنكر يومًا لرؤيته وفكره، منذ بدأ في «صباح الخير» حتى اختتم مشواره في مجلة «العربي» الكويتية، فرغم الصورة المطبوعة عنه أنه كاتب

الصفوة صاحب الثقافة الراقية، فإن كتاباته عبَّرت عن مطالب الجماهير الواسعة، لكنه أيضًا كان ينادي دائمًا بضرورة مواجهة شَطَط الرأي العام، وعدم الاستسلام لكل اتجاهاته.

وإذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين -كما فسّره الأستاذ مصطفى نبيل- أو سعيت للوصول لمفتاح شخصيته وسر جاذبيته والقبول الكبير الذي يتمتع به والمصداقية التي تُحققها كتاباته فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة، المزيج بين الحس الوطني العالي والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ إلى المستقبل مع مسحة إنسانية، وهي كلها تبدو واضحة للعيان في شخصيته وأعماله.

فمنذ شبابه الباكر كان يجمع بين شجاعة المناضل وثقافة المفكر؛ ففي يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ شُجَّ رأسه في حادث كوبري عباس خلال مشاركته في مظاهرة تطالب بالجلاء، وفي الوقت ذاته كان يجلس على مقهى «إسترا» المطلّ على ميدان التحرير، وينهمك في القراءة لساعات طويلة لا يترك شاردة أو واردة، حتى صار المرجع الأول في الصحف والمجلات، لكن عينيه دفعت ثمن نهمه للقراءة، فقد أصيبت عيناه حتى صار من الصعب عليه أن ينظر في جريدة أو كتاب!

«٣»

كان ثوريّ الهوى، لكنه حين قامت الثورة لم يسعَ لأن يكون واحدًا من رجالها في الصحافة، بل كان ناقدًا لبعض تصرفات المحسوبين عليها، فتم نقله من رئاسة تحرير «أخبار اليوم» إلى مجلة «المصور» وهو ما اعتبره بمثابة نفي له، وعلَّق قائلا: «إن

نقلي من جريدة يومية هي الأوسع انتشارًا إلى مجلة أسبوعية، كنقل مطرب من ميكروفون الإذاعة إلى ميكروفون في سرادق»!

لكنه حين انتقل إليها طوّرها وغيّر ملامحها وجعلها من أوسع المجلات انتشارًا، مثلما فعل في كل جريدة أو مجلة تولى رئاسة تحريرها، فحين صدرت مجلة «صباح الخير» في ١٢ يناير عام ١٩٥٦، كان بهاء لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، لكنه استطاع أن يحقق قفزة كبيرة في تطور الصحافة المصرية، ويجعل من مطبوعة حديثة نغمة مغايرة لما هو سائد، وروحا جديدة، وصيغة مبتكرة لم يعهدها القارئ من قبل، فجذبت شريحة جديدة من القراء، وجذبت أيضًا جيلا جديدا من الكتَّاب الذين صاروا نجومًا في ما بعد، فيكفيه أنه مكتشف صلاح جاهين الذي من فرط حبه له سمَّى ابنه «بهاء».

لكن جاهين لم يحب بهاء لصحافته فقط، ولكن عشقه لبساطته، فالبساطة هي السمة الغالبة عليه، البساطة الشديدة التي تظنها في البداية تواضعًا ثم تكتشف أنها طبيعته بلا أي ادعاء أو تكلُّف، يأكل ساندويتش الفول في الشارع، ويفوت على بائع الجرائد يشتري جورناله، البساطة جعلته رئيس التحرير المثقف «اللي بيمشي معانا على الأرض ومش طاير في الهوا» -على حد تعبير البديعة سناء البيسي- يحتضن جيلاتي الدندرمة على الرصيف ويسكن في شقة من حجرة واحدة وصالة ومطبخ بعد توليه أكبر منصب صحفي في مصر وهو رئاسة تحرير «أخبار اليوم».

ورغم شهرته الواسعة في الخمسينيات والستينيات، وتقديره للزعيم جمال عبد الناصر فإنه لم يقترب منه طوال فترة حكمه، ولم يلتقِه لقاء منفردًا رغم وجود مساحة مشتركة بينهما، لكنه

اكتفى أن يعرف الرئيس آراءه عبْر كتاباته، وعبْر صديقه محمد حسنين هيكل.

وحين تولى السادات الرئاسة أمر بنقله من «دار الهلال» إلى ««روزاليوسف»»، فرفض النقل رغم حبه لـ«روزا» التي يعد أحد صنّاعها، وقدّم استقالته، وانتقل للعمل كاتبًا في جريدة «الأهرام» لكن قرارًا آخر صدر بنقله إلى الهيئة العامة للاستعلامات ومعه ١٢٠ كاتبًا من بينهم نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم، فرفض، وفضّل أن يجلس في بيته.

وعقب نصر أكتوبر، عاد إلى الكتابة، وحدث تقارب بينه وبين الرئيس السادات، لكن رغم حرص السادات على تحييده فإنه لم يجد حرجًا من أن يعارض قراراته جهارًا نهارًا ويكتب المقولة الأشهر التي لا يزال صداها يتردد حتى الآن وهي «الانفتاح سداح مداح.. يا ريس»!

# مهندس الصحافة

«١»

حين كان حسين سرِّي باشا رئيسًا للوزراء أصدر قرارًا أن لا يستخدم صغار الموظفين الأسانسير في مواعيد معينة، وحدث أن شاهد سرِّي باشا علي أمين يكسر هذه القاعدة فعنَّفه، فردَّ عليه علي: معاليك فاكرني مين؟ أنا مش علي، أنا مصطفى رئيس تحرير «آخر ساعة».. فقال له حسين سرِّي: «يا سي مصطفى أنا باهزّر.. أنت متصوّر مش هاعرف علي أمين المهندس الصغير بالدرجة السادسة من مصطفى، تعالى اشرب فنجان قهوة في مكتبي وندردش شوية.. يا مصطفى»!

ربما كانت هذه الواقعة رغم طرافتها سببًا في تغيير حياة علي أمين الذي ترك العمل الحكومي، وتفرغ مع شقيقه لإصدار جريدة «أخبار اليوم»، فربما استشعر الفارق بين الصحفي والموظف، وحين جاءت الفرصة أمسك بها، وتمسك باستثمارها، وطوّع كل قدراته من أجل نجاحها، بعد أن كان قد تدرج في العمل الحكومي، حتى صار مديرًا عامًّا للمستخدمين والمعاشات.

قليلون جدًّا مَن يعرفون الفرق بين ملامح مصطفى وعلي أمين، وأقل منهم مَن يدركون أن كل واحد منهم كان نمطًا مختلفًا، فمصطفى كان العقل، وعلي القلب، مصطفى يستوعب الجميع ويهادن ويوازن أما علي فكان يطلق صيحاته في وجه الجميع دون أي حسابات، فلم تكن لعبة السياسة على رأس

أولوياتـه، فاهتمامـه الأول وربمـا الأوحـد كان الصحافـة وتطويرهـا، لكـن ربمـا رحيلـه المفاجـئ في عـام ١٩٧٥ جعـل البعـض لا يعرفـه، والبعـض الآخـر يجهـل دوره، والأغلـب لجـأ إلى اختـزال التـوأم في شـخص واحـد.

وهـذا أضر عـلي أمـين كثـيرًا، فـكل مـا فعلـه عـلي نُسـب إلى مصطفـى، وكل أفـكاره صـارت أفـكار أخيـه، ورغـم أنهـما كانـا يفكـران ويبدعـان ويطـوران ويصنعـان عـشرات الإصـدارات معًـا لكـن كل واحـد منهـما كان لـه دور مختلـف ولمسـة مغايـرة ورؤيـة فريـدة، فمصطفـى كان يعيـش بـين الصحافـة والسياسـة، وربمـا دفـع أغـلى ثمـن للعـب في هـذه المسـاحة!

أمـا عـلي فـكان متخصصـا في تطويـر الشـكل الفنـي للصحـف والمجـلات، وطباعتهـا وتوزيعهـا، وهـو صاحـب عمـود «فكـرة» الـذي ارتبـط باسـم أخيـه، وهـو أيضًـا صاحـب فكـرة عيـد الأم، فقـد طرحهـا لأول مـرة في عمـوده «فكـرة» قائـلا: لِـمَ لا نتفـق عـلى يـوم مـن أيـام السـنة نطلـق عليـه يـوم الأم ونجعلـه عيـدًا قوميًّـا في بلادنـا وبـلاد الـشرق، وفي هـذا اليـوم يقـدم الأبنـاء لأمهاتهـم الهدايـا الصغـيرة ويرسـلون إلى الأمهـات خطابـات صغـيرة يقولـون فيهـا «شـكرًا» أو «ربنـا يخليـكي»؟ لمـاذا لا نشـجع الأطفـال في هـذا اليـوم أن يعامـل كل منهـم أمـه كملكـة فيمنعهـا مـن العمـل، ويتـولى هـو في هـذا اليـوم كل أعمالهـا المنزليـة بـدلا منهـا؟ ولكـن أيُّ يـوم في السـنة نجعلـه «عيـد الأم»؟ وبعـد نـشر المقـال في جريـدة «الأخبـار» اختـار القـراء تحديـد يـوم ٢١ مـارس ليكـون عيـدًا لـلأم.

«٢»

والدة علي أمين هي ابنة شقيقة الزعيم الوطني سعد زغلول، لذلك شاء القدر أن يشهد ويشاهد بنفسه ما جرى في ثورة ١٩ -وعمره خمس سنوات- من داخل بيت سعد زغلول، فصنع هذا الظرف وعيًا مبكرًا جدًّا لطفل صغير، فبدأ حياته الصحفية عام ١٩٢٢ وهو لا يزال طفلا عمره ثماني سنوات، وأصدر مع شقيقه مصطفى مجلة اسمها «الحقوق» مكتوبة بالقلم الرصاص، وتحتوي على أخبار البيت، وبعدها بعامين أصدرا مجلة «سنة ثالثة ثالث»، ثم أصدرا مجلة «عمارة البالي» لأولاد الحي الذي يقيمان فيه. وفي ١٩٢٨ صدر قرار بفصل علي أمين من المدرسة لأنه صفع حكمدار الغربية الذي حاول الاعتداء على مصطفى النحاس باشا في مدينة طنطا، وبعد عامين صدر عفو عنه ودخل المدرسة الخديوية، ثم التحق بالجامعة الأمريكية وحصل على البكالوريا وسافر إلى إنجلترا وحصل على بكالوريوس الهندسة عام ١٩٣٦.

لكنه لم يتصور أنه سيصبح بعد أقل من عشر سنوات مهندس الصحافة المصرية والعربية، وأنه سيصنع للصحافة شكلا فنيًّا مختلفًا ومغايرًا لما اعتاد الناس عليه، فعلي أمين بمثابة سيد درويش الصحافة، فمثلما غيَّر درويش شكل الموسيقى غيَّر أمين شكل الصحافة.

كل تجربة خاضها أضاف لمسة جديدة، فحين انتقل إلى «دار الهلال» ليعمل رئيسا لتحريرها كان توزيعها محدودًا للغاية، وكانت على وشك الإفلاس، لكنه قرر أن يجمع كل نجوم الفكر

والأدب والصحافة في إصدار واحد، فأعاد الحياة إلى المجلة الأعرق، فاضطرت «دار الهلال» لأول مرة في عمرها أن تجمع الورق «الدشت» وتصنع منه نسخًا رديئة الطبع، التهمتها السوق في دقائق بعد أن نفدت كل الكمية المطبوعة!

هذا نتاج ما فعله علي أمين في مجلة «الهلال»، وهذه هي قيمته، فقد بثّ الروح في الصحافة حتى لا تتعرض للانقراض، لذلك قال يومها: «أنا لم أصنع هذه المعجزة، مَن صنعوها هم الذين يحرقون دماءهم وأعصابهم في المقاعد الأولى في صحافة بلادك، إنهم إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وعباس العقاد وطه حسين وكامل الشناوي وصلاح جاهين ومصطفى أمين والدكتور محمد حسين هيكل».

«٣»

لكنَّ علي داخل الجريدة شيء، وخارجها شيء آخر!

فعلي أمين خارج الجريدة إنسان وديع وهادئ الطباع، لذلك كان يظن عبد الحليم حافظ أن الفنان حسين رياض هو الأنسب لأن يلعب دور رئيس التحرير في فيلم «يوم من عمري»، خصوصا أنه يرى صديقيه مصطفى وعلي أمين خارج بلاط صاحبة الجلالة حيث سهرات الفن والصحافة والأدب والسياسة، لذلك لم يكن يتخيل أن يرى ما رآه!

ذهب عبد الحليم حافظ إلى «أخبار اليوم» بعد الاتفاق على أن يتم تصوير بعض المشاهد داخلها، وطلب من صديقه أحمد رجب أن يُظهر له حقيقة العلاقة بين المحرر ورئيس

التحرير وأن يستفز علي أمين ليراه بصورته الصحفية حيث التعامل دون تكلُّف أو تصنُّع، وبالفعل داعب التلميذ أستاذه بواحد من مقالبه الصحفية، فانطلق علي أمين وهاج وماج، واندهش العندليب لما رآه، وذهب إلى محمود المليجي ليعرض عليه أن يقوم بدور علي أمين بدلا من حسين رياض الذي كان مرشحًا لعمل هذا الدور!

كان اختيار حليم لأحمد رجب هو الاختيار الأمثل، باعتباره الأقرب إلى قلب علي أمين، إذ كان يقضي معه ١٨ ساعة يوميًّا في «الأخبار»، ولا يفارقه إلا في أثناء النوم. يروي أحمد رجب ذكرياته مع علي أمين قائلا: في الخمسينيات فصلني علي أمين عشرات المرات، وأنزلني من نائب رئيس تحرير إلى محرر عشرات المرات، وعشرات المرات أصدر قرارا بنقلي بوابًا لـ«أخبار اليوم» على أن يحلّ محلّي أبو زيد البواب نائبًا لرئيس التحرير، لكن حدث ما جعل علي أمين يكفّ عن تهديدي بأبو زيد، أو على الأصحّ، يقلل من حدته، إذ أرسلتُ إليه مذكرة عن تأخر الأقسام الفنية في إعداد غلاف العدد الجديد، ومع المذكرة صورة الغلاف الملونة من تصوير أحمد يوسف، ونظر علي أمين إلى صورة الغلاف، فإذا بها صورة أبو زيد وعليها تعليق: «أبو زيد معبود النساء» اقرأ ص٢٦! وضحك علي أمين واعتبرها نكتة ورفع سماعة التليفون واتصل بي لكنني كنت في مكتب آخر، فاتصلتُ بعلي أمين منتحلا شخصية رئيس الأقسام الفنية ومقلدًا صوته، وقلت لعلي أمين: أحمد رجب كتب فينا مذكرة وده غير صحيح يافندم لأن غلاف أبو زيد جاهز!

# دبّرنا يا كبير

«١»

نموذج مختلف، ومخالف، ومغاير، وجاذب، ولافت، ومهمّ، ومؤثِّر، وطاغٍ، ومنفرد، ومتفرِّد، وصائغ، وصانع، وطبيب، ومحامٍ، وجورنالجي، وروائي، ومسرحي، وسيناريست، وصاحب مدرسة، وصاحب «سوابق»

إنه الكبير صلاح حافظ.

لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يمكن أن تتجاوزه، فهو ذلك النموذج الذي لا يتكرر كثيرًا الذي يجمع بين المناضل الحقّ، والصحفي الأحقّ بكرسي رئاسة التحرير، لكن حماس المناضل لم يطغَ على صحافته، فلم يكن يُصدر منشورًا سياسيًّا بل أصدر وأشرف على صحف ومجلات جمعت كل فنون الصحافة، لكنها في ذات الوقت كانت تناصر البسطاء وتدافع عنهم وتقف معهم في وجه السلطة.

فهو من قليل وقليل جدًّا ممن جعلوا الصحافة القومية لسانًا للشعب وليست بوقًا للسلطة، وحين كان يختبئ الجميعُ كان يتصدر المشهدَ، وحين كان يعلو صوت الجميع كان صوته مميزًا، ونغمته مغايرة، لذلك كان ضيفًا دائمًا على المعتقلات، يدافع عن الحق، ويقف ضد الظلم، وينصرف إلى السجن غير عابئ أو مكترث بما يجري له ومعه. كان يتقبل السجن كأمر واقع كأنه سيعيش فيه أبدًا، وأنه المكان الطبيعي للإنسان،

وأبدًا لم يشاهَد مرة وعلى وجهه أي علامة للقلق، ولم يسأل مرة متبرمًا: متى يحين وقت الإفراج؟!

كان مشغولا بأعماله، منشغلا بهموم الآخرين وليست لديه دقيقة تعد فائضًا من الوقت، فالأعباء الملقاة على كاهله كثيرة، وعليه وحده أن ينجزها، كتأليف رواية أو إخراج مسرحية أو الإعداد لحفل سمر أو إلقاء محاضرات أو علاج زملائه من المعتقلين أو الحرس الجنود.

وحدث أن جاء مأمور جديد صارم لا يتردد في البطش والقسوة بالمعتقلين ولكن بعد فترة ابتلع ولداه أقراصا كانت دواء مهدئا له تركها سهوًا بجوار فراشه في البيت، فانهار الرجل وسارع يطلب معونة الأطباء المعتقلين، فراح صلاح حافظ وشريف حتاتة لإسعاف الطفلين، وبينما كانا يُجريان الإسعافات الطبية كان المأمور يبكي ويتوسل إلى السماء قائلا: يا رب أنقذ لي ولو ولدا واحدا! فردّ عليه صلاح: وواحد ليه..؟! ده ربنا كبير ينقذ الاتنين. فتعجب المأمور من الرد ليقول: «الله انتم بتعرفوا ربنا زينا؟!»، وجاء رد صلاح: «نعم.. ونعرفه أكثر منكم.. نعرفه بالتصرفات لا بالكلام»، وعندما استرد صلاح حافظ حريته ظل المأمور صديقا لصلاح حتى النهاية.

«٢»

صلاح حافظ كان أسطورة حقيقية، وشخصية أسطورية، فلم يمنعه قربه من الرئيس السادات من أن يسخر منه، وأن يخالفه، ويختلف معه، فحين وقعت أحداث ١٨ و١٩ يناير عام

١٩٧٧ ووصفها الرئيس الراحل بأنها «انتفاضة حرامية»، خرجت ««روزاليوسف»» التي يرأس تحريرها صلاح حافظ، مدافعةً عن حق الشعب في الخروج للتظاهر ضد النظام، وكاشفة أن المظاهرات كانت بمثابة انتفاضة شعبية من أجل الخبز، فقرر السادات إبعاده عن منصبه، هو واثنين معه هما المبدعان عبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم، فدفع صلاح الثمن راضيًا وتفرّغ لزراعة الجرجير، وكتابة سيناريو وحوار رواية فتحي غانم «زينب والعرش».

المدهش أن حلقات هذا المسلسل الأبدع الذي شارك فيه عدد كبير من كبار النجوم من بينهم محمود مرسي وصلاح قابيل وسهير رمزي وحسن يوسف، تمت كتابتها بطريقة غريبة؛ حيث اتفق فتحي غانم وصلاح حافظ على أن يكتب أحدهما الحلقات الفردية والآخر يكتب الحلقات الزوجية، ولم يلحظ أي أحد أي ثغرة في كتابة الحلقات، فالروح كانت واحدة، كأنه أوركسترا يعزف بآلات مختلفة نغمة واحدة.

صلاح حافظ حلّ المعضلة التي ما زال يبحث لها الصحفيون عن حل حتى الآن، فقد جمع بين القدرة على صناعة صحافة يحبها القارئ ويُقبل عليها وينتظرها وتوزِّع آلاف النسخ وفي الوقت ذاته تكون جريئة وحاسمة ومشاغبة ومنحازة إلى البسطاء، خلطة لا تتكرر كثيرًا جعلته يقفز بتوزيع ««روزاليوسف»» حين تولى رئاسة تحريرها من ثلاثة آلاف نسخة إلى ما يزيد على المئة ألف نسخة.

وهكذا فعل في كل صحيفة ترأس تحريرها أو أشرف عليها أو عمل مستشارا لها، فقد كان ينتصر للمهنة وللناس ولم تخذله موهبته ولم يخذله الناس، فهو صاحب واحدة من كبرى المدارس

في تاريخ الصحافة المصرية والعربية، فعلاوةً على إعادته الروح في «روزاليوسف»، فقد شارك في وضع حجر الأساس لعدد كبير من مجلات الخليج.

«٣»

وحين قامت ثورة يوليو وجد صلاح حافظ في مبادئها ضالّته المنشودة، وشعر أنها جاءت من أجل تحقيق المبادئ التي يناضل من أجلها، فدافع عنها رغم أنه كان من أسرة ثرية، ووالده «عُمدة»، لكن حين رأى أن الثورة انحرفت عن مسارها كتب مقاله الأشهر «العصابة التي تحكم مصر» فأُلقيَ في السجن بضع سنين تنقّل فيها بين السجون بعد أن كان على وشك التخرج في كلية الطب مثل زميليه يوسف إدريس ومصطفى محمود، لكنه كان قد وقع أسيرًا بين الأدب والصحافة والسياسة، ولم يكن ممكنا إعادة قيده في كلية الطب بعد خروجه من المعتقل، فلم يعد حَسَن السير والسلوك في رأي الحكومة، فقد صار صاحب سوابق، وإن كانت حتى هذه اللحظة سابقة واحدة فقط.

لكنَّ حلمَه كان أكبر!

يقول: لم أحلم في أي يوم أن أكون وزيرا لكنني حلمت طول عمري أن أكون سلطانًا يضع ساقًا على ساق ويقول «دبرني يا وزير»!

وحقق هذا الحلم على الورق حين كتب واحدا من أبدع أعماله «دبّرنا يا وزير» ونشره على حلقات في مجلة «صباح الخير» عام ١٩٨٥ ثم جمعها في كتاب وقال في مقدمته: «سأكون

أسعد الناس يوم أن توضع نسخة من هذا الكتاب في المتحف المصري، باعتبارها من آثار عصر قديم لم يعد له وجود، ولم تعد لمؤلفاته فائدة، لأن القضايا التي يثيرها قد تم حلها والحمد لله... وسأكون أتعس الناس لو أُعيدت طباعة كتابي عامًا بعد عام، وجيلا بعد جيل ووزيرا بعد وزير، دون أن نصل إلى حل هذه المشكلات».

والمدهش أن المشكلات التي كتبها وفنَّدها وحللها وفسَّرها وطلب تدخل الوزير فيها، بقيت كما هي دون أي تتغير إلا إلى الأسوأ، لكن الأغرب أن الكتاب أيضًا لم تُعد طباعته!